الثورة الروسية

اسبابها ونتائجها

اشرنا في مقتطف مايو الماضي الى الثورة الروسية التي ثلت عرش بيت رومانوف وقياصرة الروس لانها اضطرت القيصر نقولا الثاني الى التنازل عن عرش ابيهِ واجدادهِ ولم تمهد سبيلاً لتنصيب غيرهِ من بيتهِ بدلاً منهُ . وحتى كتابة هذه السطور لم يعلم بالتحقيق كيف تكون حكومة الروس في المستقبل

ولكل مسبب سبب فلا بدَّ من سبب او اسباب انتجت هذه الثورة وهذا ما نقصد البحث فيهِ الآن

نشرنا منذ اربع سنوات مقالات ضافية في تاريخ روسيا يجد فيها المطالع ادلَّة كثيرة على ان قياصرة الروس حكموا شعبهم غالباً بيد من حديد . فالقيصر ايڤان الرابع الملقَّب بالرهيب زحف مرة على امارة نوفغورد وقتل من اهلها ستين الفاً بينهم كثيرون من النساء والاولاد . وفي عهد ابنهِ ثيودور قيِّد الفلاحون بالارض التي يفلحونها فصاروا عبيداً ارقاء فيها يباعون ويشترون معها . ولما اختير ميخائيل رومانوف سنة ١٦١٣ لعرش روسيا كان اشراف البلاد قد اعتادوا الصَّلف والعتو فتعذَّر عليهم الاقلاع عنهما وكان ميخائيل حدثاً في الخامسة عشرة من عمرهِ فلم يستطع ان يكبح جماحهم ويرغمهم على طاعتهِ . وجرى اكثر خلفائهِ مجرى ايڤان الرهيب من حيث ارهاق الرعية وتعذيب الناس عذابات مبرحة ولو كانوا من اشرف اشراف الامة واكثرهم تنعُّماً فكانوا يخلعون مفاصل من يريدون تعذيبهُ ويقطعون يديهِ ورجليهِ ويسلخون جلدهُ وهو في قيد الحياة او يحرزقونهُ او يحرقونهُ وهلمَّ جرًّا من انواع العذاب الجهنمي . واخفها النفي الى سيبيريا حيث يقضي المنفيُّ عمرهُ متحملاً اشد انواع الضنك الى ان ينجيهُ الموت منها

لكن اساليب العمران الحديث دخلت روسيا منذ عهد بطرس الاكبر فانشئت فيها المدارس الجامعة والجمعيات العلمية ونشأ منها علماء وادباء من الطبقة الاولى بين علماء الارض وادبائها وحسبنا ذكر الاستاذ مندليف العالم الكيماوي والكونت تولستوي الفيلسوف الاجتماعي . وكان انشاؤها نصيب وافر من العزو والعرفان كما لرجالها . والعلم يكبِّر النفوس فتطلب الاتساع واذا اشتدَّ عليها الضغط والتضييق فلا بدَّ من ان تنقلب عليهما يوماً ما وهناك

الانجار العظيم كما اذا وضعت ماء في اناء من الحديد وسددته سداً محكماً وسخنت الماء فيه او بردته فانه يتمدد و يشق الاناء مهما كان متيناً

فاذا اردنا الاجمال في ذكر الاسباب التي انتجت الثورة الروسية قلنا ان انتشار الافكار الحرة في روسيا آل الى تقويض اركان الحكومة الاستبدادية لان الحرية والاستبداد لا يجتمعان الا الى حد محدود . واما اذا اردنا التفصيل فلا بدّ من الاسهاب في ذكر الاسباب المباشرة لهذه الثورة

لا شبهة في علاقة الحرب الحاضرة بالثورة الروسية فقد دخلها الروس غير مستعدين لها وظاهر الامر انهم هم الذين اثاروها وحقيقته ان الحكومة اشتدت اولاً في الاخذ بيد السرب والانتصار لها وغرضها انقاذ تلك المملكة من سطوة النسا بالوسائل السياسية ولكن الحزب الحربي في المانيا خدعها كما ثبت الاستاذ جوردان في المقالة البليغة التي نشرناها له في مقتطف ابريل ومايو الماضيين فاقنعها ان المانيا امرت بالتعبئة العامة قاصدة اخذ روسيا على غرة . ثم ان المانيا استدرجت الروس الى ان دخلوا بلادها ونفد ما عندهم من الذخيرة القليلة فارتدت عليهم حتى اضطروا ان يتركوا ما دخلوه من البلاد و يعودوا الى بلادهم مدحورين وكادوا يفلون في رجوعهم الى عاصمتهم واستحدث دوائر الحكومة الروسية لمغادرة العاصمة امام سيل الالمان الجارف . وكان في البلاد يدٌ المانية خفية تحاول اثارة الشعب ليخرج على حكومته و يضطرها الى عقد الصلح فاحتكرت الطعام ومنعت وصوله الى الجياع من الشعب والى الجنود ايضاً . وزاد غيظ الشعب ما ارتكبه اعوان روسبوتين من الجرائم . فهذا واستعداد البلاد للثورة على الاستبداد وحسبانها ذلك صروح الجور والاثرة غاية تتوخاها النفوس الابية والمساواة بين طبقات الامة غرضاً طالما تاق الشعب اليه وحث العلماء والادباء على تطلبه — ذلك كله اعدّ البلاد لاضرام نار الثورة واطلاق القوة المجتمعة في بارودها حالما كرّ الصجر على الزناد

ولقد بدا التحفز للثورة الروسية منذ خمسين سنة وكان اولاً محصوراً في الشبان تلامذة المدارس واستمرّ كذلك ثلاثين سنة . وفي غضون هذه المدة كثرت المعامل الصناعية في البلاد واجتمع فيها الوف العمال فشاركوا التلامذة في الجنوح الى الثورة وانتشر هذا الميل بين الفلاحين حتى اذا قام البعض سنة ١٩٠٥ وطلبوا حريتهم السياسية قام الفلاحون ايضاً وطلبوا ان يحرّروا هم وارضهم اي ان يمتلكوا الارض التي يفلحونها . وقد تمكنت الحكومة حينئذٍ من قمع الثورتين بحسب الظاهر ولكن اليقين ان الثورة لم يزل من النفوس

فعاد الناس الى الشكوى سنة ١٩٠٤ وشقّ بعضهم عصا الطاعة وقاوموا جنود الحكومة علانية في شوارع العاصمة لكن نشوب الحرب الاوربية صرف النفوس عن اغراضها الذاتية الى الغرض العمومي وهو مقاومة العدو العام وظهر حينئذٍ كأن الحرب انقذت روسيا من الثورة الداخلية والّفت بين طبقات شعبها. ولو استمرّ الفوز لروس الى ان عُقد الصلح لترجح تأخُّر الثورة او انتفاؤها اذا صارت الحكومة نيابية دستورية حقيقةً. ولذلك فالقضاء على الحكومة المطلقة في بلاد الروس نتيجة لمقدمات سابقة مصبوغة بالدم والدموع وغاية طالما توخاها العلماء والادباء والمفكرون في تلك البلاد

وكان من نتائج ثورة الافكار سنة ١٩٠٥ ان انشئ المجلس النيابي المعروف بالدوما. وهو دواء مسكّن لا شفاء استنبطهُ الكونت ويت الملقب بمستشار الحكومة. ثم قصّرت اشفار الدوما سنة ١٩٠٧ وعاد انحصار الامر والنهي في دوائر الحكومة ولكن بقيت الدوما حصنًا للدستور يلجأ اليهِ اذا اريد انتهاك حقوق الامة لانها تمثلها كما حدث فعلاً في الوقت الحاضر. وقد ظالما تمنى اهل السيادة من الروس القضاء على الدوما فلم يقضَ عليها بل بقيت لتلك الحكم الجمهوري فان الدوما الاخيرة انتُخبت كما انتخبت الدوما السابقة حسب القانون الذي سنّ في ٣ يونيو سنة ١٩٠٧. واعطى اكثرية الاصوات لاصحاب الاراضي الواسعة واصحاب الاموال الوافرة ولذلك وافقت على دخول الحكومة في هذه الحرب. ولكن لم تمضِ سنة على الحرب حتى ظهرت كل عيوب الحكومة ولما اجتمعت الدوما في ٩ يوليو سنة ١٩١٥ كانت آراء اعضائها قد تغيرت تمامًا فقامت على الوزارة وعزت اليها كل اسباب الانكسار في غليسيا وكل ما حدث من الاهمال وانفاق الاموال في غير محلها فاجتهدت الحكومة حينئذٍ في اصلاح الخلل اجابة لرغبة الدوما والشعب ولكن الطبع غلاب فانتهى سنة ١٩١٥ الاّ ورسبوتين والايدي الخفية التي كانت تعمل معهُ سرًّا قد تغلبت على الحكومة

الاّ ان الدوما لم تبطل سعيها وانضمت احزابها بعضها الى بعض — ولا امل من المحن في ضم الاحزاب المتفرقة — وتألف منها حزب كبير في ٢٥ اغسطس سمّي نفسهُ حزب التقدم فجاراهُ اكثر اعضاء الحكومة الوقتية والوزراء المائلون الى الثورة. ولما اجتمعت الدوما في ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٠٦ وافقها مجلس الدولة على مطالبها وهي اولاً القضاء على اليد الخفية التي طلوحت بالحكومة. وثانيًا تأليف وزارة قوية تشارك الدوما في العمل ويكون اعضاؤها من الذين تثق بهم الامة تمام الثقة. وبعد خمسة ايام اجتمع مؤتمر الاعيان المتحدين وهو حصن الحكومة الحصين وقرر مثل ذلك. واتضح حينئذٍ ان الوزارة كانت قد خانت الامة

وجعلت تسعى الى عقد الصلح المنفرد مع المانيا ولو ضحّت مصالح الامة . وقام بعض الاعيان وقتلوا رسبوتين لكن الحكومة لم تعبأ بذلك حتى اذا امتلأت كأسها ثار العمال في بتروغراد وساعدهم تلامذة المدارس ثم انضم اليهم الجيش الذي هناك وصار اعضاء الدوما في طليعة الثائرين وكان من امر الثورة ما كان كما ابتدأناه في مقتطف مايو الماضي

ان فساد الحكومة الروسية مما تضرب به الامثال ولكن الشعب لم يتمكن من قلبها قبلاً لعدم الاتفاق بين احزابه . ولم تتفق هذه الاحزاب قبلاً على الحكومة الا مرة واحدة وذلك سنة ١٩٠٥ لكن المتطرفين منهم خرّفوا المعتدلين وهم اصحاب الاراضي والمعامل فانفصلوا عن سائر الاحزاب . وكان الجيش لا يزال موالياً للحكومة فلم تفلح الثورة حينئذٍ واما الآن فالجيش مع الشعب على ما يظهر

وتبقى مسألة مهمة بل هي اهم المسائل وهي هل الشعب الروسي مستعد للحكم الجمهوري وهل في البلاد العدد الكافي من الرجال الذين يعرفون ان يحكموا انفسهم بانفسهم و يقفوا عند حدود الانصاف فيعطوا كل ذي حق حقهُ و يمنعوا اعتداء القوي على الضعيف . والجواب ان المبادىء الاشتراكية دخلت روسيا وابتعث فيها لانها وجدت في الشعب الروسي تربة صالحة لنموها فنشأت فيها جمعيات العمال والاشتراكيين الذين يطلبون توزيع الاراضي على السكان . ولما انتُخبت الدوما الثانية كان الاعضاء الاشتراكيون ١٧ في المئة من حزب اليمين وعشرين في المئة من حزب الشمال مع ان الانتخاب لم يكن حرًّا . والمرجح انهُ اذا وقع الانتخاب لمجلس الدوما الآن وكان عامًّا وجرى على تمام الحرية فاكثر الاعضاء يكون من الاشتراكيين . واكثر زعماء الاشتراكيين من ذوي العفّة والاستقامة والتبصّر في عواقب الامور فلا يبعد ان يبتدعوا اساليب جديدة تساوي بين طبقات الناس على قدر الامكان او تصلح الفروق الطبيعية وتمنع الفروق الصناعية حتى لا يهتضم احد حق غيره ولا يقف عثرة في سبيل راحته ورفاهته بل يعيش الجميع على نوع من الوئام لا يفوقهم فيهِ النحل والنمل . ولكن بلاد الروس واسعة جدًّا وكثير من شعوبها غير مستعد لهذا النوع من الحكم الجمهوري الاشتراكي وجمهور الاشتراكيين يعلم ذلك وقد صرّحوا في بيانهم الذي نشروهُ في ٢٧ مارس الماضي ان حالة البلاد الحاضرة تمنع جعل الثورة الحاضرة ثورة اشتراكية عمومية . ولا شبهة في ان زعماء الثورة الذين هم زعماء الحزب الاشتراكي سيجربون نشر المبادىء الاشتراكية والعمل بموجبها وجري الحكومة عليها والمرجح نجاحهم لان شعوب السلاف ميّالة الى المبادىء الاشتراكية

واعقد المشاكل في سبيل الروس مشكلة الاراضي فان الفلاح الروسي يعتقد ان الارض التي يزرعها يجب ان تكون لهُ وهو لا يجعل بغير الزمن الذي يملك فيهِ تلك الارض وعندهُ ان لا انصاف بغير ذلك

والمرجح ان الاشتراكيين يستصفون كل الاراضي التي يتملكها كبار الاغنياء ويوزعونها على الفلاحين او على نقاباتهم. ولقد كان من اول افعال الحكومة الوقتية انها استصفت املاك القيصر الواسعة واملاك بيتهِ ولا بدَّ من ان تجري الحكومة الحاضرة مجراها ولكن اذا تيسَّر استصفاء الارض واقتسامها لا يتيسَّر استصفاء المعامل واقتسامها لان العمل الذي يشتغل فيهِ الف عامل لا يستطيع كل منهم ان يستقل بجزء من الف جزء منهُ كما يستطيع الف فلاح يزرعون عشرة آلاف فدان ان يستقل كلٌّ منهم بزرع عشرة افدنة. وهذا ايضاً ليس في مصلحة الامة بنوع عام لان كل الاعمال الكبيرة كانشاء الترع والمصارف وجلب الاسمدة ونقل الحاصلات الى اسواق الدنيا الكبيرة لا يستطيعهُ صغار المالكين اي الذين يملك الواحد منهم فداناً او اثنين او عشرة بل كبار الملاك وكبار الاغنياء وهؤلاء كلهم امناء على اموال الامة ومصالح الامة يكتسب الواحد منهم الوف الجنيهات في السنة ولكنهُ لا يأكل اكثر من رغيف واذا مات لا يدفن في اكثر من مترين من الارض واذا اسرف في معيشتهِ فاسرافهُ انفع من اقتصاد من حيث توزيع الاموال واذا لم يسرف هو اسرف اولادهُ واحفادهُ. ومهما احسنت روسيا في حكمها الجمهوري لا تحسن اكثر من انولايات المتحدة الاميركية ولا اكثر من سويسرا والجمهورية في المكانين لم تستطع ان تمنع التفاوت بين طبقات الناس وما يمكن ولو وزعت الاموال عليهم بالسواء اليوم لوجدتهم متفاوتين فيها بعد أيام قليلة لان الطبيعة لم تساوِ بينهم

ولقد كان المظنون ان عامة الشعب الروسي ينظرون الى القيصر بنوع من العبادة او الاكرام الديني وان لهُ في نفوسهم المنزلة الثانية بعد الله حتى لما طيَّر البرق خبر الثورة وخلع القيصر لم تكد تصدقهُ وكان رجال الحكومة الروسية يظنون ذلك ايضاً حتى لما وضع الكونت وت نظام الانتخاب للدوما قصد ان يكون جانب كبير من اعضائها من الفلاحين لاعتقادهِ انهم يعبدون القيصر فكان كما دبَّر ولكنهُ وجد ان اكثر اولئك الاعضاء من الاحرار المتطرفين

والذين يعرفون احوال روسيا تمام المعرفة يقولون انها اكثر استعداداً من غيرها للحكم الجمهوري لان الشعب الروسي يكره السياسة فابتعد عن حكومتهِ وادار أمورهُ بنفسهِ

وتجد اصول الحكم الذاتي في امكن كثيرة في روسيا فان الفلاحين يجتمعون بعضهم مع بعض في ابان معلومة ويديرون امورهم ويفصلون في بينهم من الخصومات وهم من هذا القبيل اقرب الى الحكم الذاتي من الفلاحين في سائر البلدان وعندهم مجالس الاقاليم (زمستوف) انشئت سنة ١٨٦٤ حين الغاء الاستعباد الزراعي اعضاؤها من الملاك والفلاحين وبعض سكان المدن وهي مستقلة عن ادارات الحكومة ولو اسميًا . ولقد كانت هذه المجالس دائمًا شوكة في جنب رجال الحكومة وكان العداء مستحكمًا بينها وبينهم ولكنها افادت الحكومة من وجوه شتى وإليها ينسب نشر التعليم الاوربي في البلاد واصلاح معايش السكان . ولما نشبت الحرب زادت عملها وزادت فائدتها فاشتركت مع المجالس البلدية في كل الاعمال . وهي التي اعدّت الاطعمة والالبسة للجيوش وصنعت لها الزخيرة . ولما نشبت الحرب تألفت في كل البلدان الصناعية من روسيا لجان الصناعات الحربية . والبرنس جوزف لفوف الذي عين رئيسًا للوزارة الاولى عقب الثورة هو رئيس اتحاد مجالس الاقاليم الذي يضم اربع مئة مجلس منها

فاساس الثورة الروسية واساس الحكم الجمهوري فيها ليسا ضعيفين كما يظن قبل امعان النظر ولكنهما قويان متينان . ومهما تكن اسباب الحرب الاوربية فرجال الثورة الروسية ينظرون الى هذه الحرب كوسيلة استخدمها رجال الحرب الحربي البروسي لاذلالهم والقضاء على استقلالهم او كما قال جورج بلخانوف زعيم الاشتراكيين الروسيين انها وسيلة الالمان الطامعين في بسط سيادتهم على الدنيا ولذلك فهم يحاربون المانيا ليخلوا من شرها

ومتى وضعت الحرب اوزارها فلا يبعد ان تصير روسيا اكبر ضمان للسلم في العالم بعد ان كانت اكثر الممالك رغبة في فتح البلدان للاكتساب من خيراتها وفتح الابواب لايجاد الاسواق لتاجرها الاول بالسلاح والثاني بالسياسة . وقد قضت الثورة على الاول واعلنت الحكومة الروسية الجديدة انها لا ترغب في فتح بلدان جديدة . واما الثاني اي ايجاد الاسواق للتاجر فالاهتمام بحال الشعب يغني عنهُ لان بلاد الروس واسعة جدًّا وخيراتها وافرة وشعبها كثير قادر ان يستقل بنفسهِ ويستغني بهِ عندهُ من كل وجه . ومتى استثمر خيرات بلادهِ وصنع ما يحتاج اليهِ من الآلات والادوات بنفقة قليلة انتقلت مصنوعاتهُ الى اسواق الدنيا ورجحت فيها ولو لم يهتم هو بترويجها لانها تكون ارخص من غيرها . واهل الولايات المتحدة الاميركية اصلح البلدان لتستعين بها روسيا وتنسج على منوالها